دكتور محمود حمدى زقزوق

دور الإسلام

فى تطور الفكر الفلسفى

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣١٤٧٠

دكتور محمود حمدي زقزوق
وكيل كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
بجامعة قطر

دور الإسلام
في تطور الفكر الفلسفي

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

دور الاسلام فى تطور الفكر الفلسفى (١)

الحديث عن دور الاسلام فى تطور الفكر لابد من التمهيد له بعرض موقف الاسلام من العقل ، اذ أن هذا الموقف هو الذى يستطيع ان يتيح لنا التعرف على مدى امكانية أسهام الاسلام فى تطور الفكر بصفة عامة والفكر الفلسفى بصفة خاصة . وعلى هذا سينقسم بحثنا الى قسمين أولهما عن موقف الاسلام من العقل وثانيهما عن دور الاسلام فى تطور الفكر .

● اولا — موقف الاسلام من العقل :

١ — تمهيـد :

لم يكن للعرب قبل الاسلام ما يمكن ان يطلق عليه المرء فكرا فلسفيا ، فقد كانت لهم نظرات فلسفية متناثرة فيما خلفوه لنا من نثر وشعر ، ولكنها كانت من فلتات الطبع وخطرات الفكر كما يقول الشهرستانى (٢) (٤٧٩ — ٥٤٨ هـ) فلم يكن لديهم اهتمامهم بالتعليل

---

(١) سبق تقديم هذا البحث الى ندوة الحضارة الاسلامية فى بروكسل التى عقدت فى الفترة من ٨ الى ١٠ نوفمبر ١٩٨٢م . وقد قررت رئاسة الندوة نشر هذا البحث باللغة الانجليزية فى كتاب يتضمن بحوث الندوة المذكورة .

(٢) الملل والنحل جـ ٢ ص ٦٠ دار المعرفة بيروت ١٩٨٢ . راجع أيضا طبقات الأمم للقاضى ابى القاسم (صاعد بن أحمد) الذى يقول فى معرض كلامه عن علم العرب فى الجاهلية (ص ٤٥ طبعة بيروت) : « وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله عز وجل شيئا منه ، ولا هيأ طباعهم للعناية به » انظر المزيد من التفصيل عن ذلك فى : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق ص٣١ وما بعدها (مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ .) .

او محاربة التقليد والخرافات أو البحث عن العـلاقة بين المقدمات والنتائج فيما كان منتشرا لديهم من آراء وأقاصيص ، « لقد كانت لديهم معارف فلكية وطبيعية متصلة بمعارف الكلدانيين والصـابئة ، ومعارف طبية تجريبية مصحوبة بالرقى والعزائم والتمائم ، وأساطير زاخرة بأخبار الجن والسعالى والغيلان والشياطين ، وأمثال وحكم تدل على منازعهم العقلية ، وشـعر فى الزهد تغلب عليه العناصر الخلقية والروحية ، ولكن ذلك كله لا يؤلف مذاهب فلسفية كاملة ، لأن التفكير الفلسفى لم يبدأ عندهم الا بعد ظهور الاسلام » (١) .

فقد بعث الاسلام فيهم حياة جديدة ، ونقلهم الى أفق فسيح من العلم والمعرفة فأقاموا صرح دولـة عظمى تمتد من أقصى الصـين شرقا الى أقصى الأندلس غربا ، وأنشأوا حضارة زاهرة كانت من أطول الحضارات عمرا فى التاريخ ، وفى هذا الجو ازدهرت العلوم والمعارف على اختلاف انواعها ، وأسهم المسـلمون فى الجهـود الفلسفية وأصبحت لهم فلسفة تحمل طابعهم وتميزهم عن غيرهم ، ولم يكن ذلك كله يمكن أن يحدث الا اذا كانت تعاليم الاسلام تشتمل على العناصر الأساسية لهذاء التحول العظيم .

***

٢ — الانسان فى نظر الاسلام :

لقد كان حجر الأساس فى هذا البناء الجديد يتمثل فى نظرة الاسلام الى الانسان . فالاسلام ينظر الى الانسان على انه خليفة الله فى الأرض (٢) . وقد فضله الله على جميع الكائنات وكرمه اعظم

---

(١) تاريخ الفلسفة العربية للدكتور جميل صليبا ص ١٦/١٥ دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٣ ، راجع أيضا : دروس فى تاريخ الفلسفة العربية الاسلامية لعبده الشمالى ص ٥/٤ بيروت ١٩٥٦ .

(٢) مصـداقا لقوله تعالى : **« انى جاعل فى الأرض خليفة »** (البقرة : ٣٠) .

تكريم كما تعبر عن ذلك آيات القرآن (١) . وهذه الكرامة الذى اختص الله بها الانسان ذات أبعاد مختلفة ، فهى حمايه الهية للانسان تنطوى على احترام حريته وعقله وفكره وارادته ، وتنطوى أيضا على حقه فى الأمن على نفسه وماله وذريته (٢) . وهـــذه الكرامة تعنى فى النهاية الحرية الحقيقية وهى تلك الحرية الواعية المسئولة التى تدرك اهمية تحملها أمانة التكليف والمسئولية التى أشار اليها القرآن فى قوله **((انا عرضنا الأمانة على الســموات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان))** (٣) .

واذا كان الله قد اختص الانسان بالتكليف والمسئولية فانه من ناحية أخرى قد خلق له هذا الكون بما فيه ليمارس فيه نشــاطاته المادية والروحية على السواء . ويشير القرآن الى ذلك فى آيات عديدة منها قوله تعالى : **((وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون))** (٤) .

والتفكر الذى تنص عليه الآية هنا أمر جوهرى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان ، فانه اذا كان الله قد سخر للانسان هذا الكون فلا يجوز له أن يقف منه موقف اللامبالاة بل ينبغى عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفا ايجابيا . وايجابيته تتمثل فى درسه والنظر فيه للاستفادة منه بما يعود على البشرية بالخير . والاستفادة من كل هذه المسخرات فى هذا الكون لا تكون الا بالعلم والدراسة والفهم . والنظر فى ملكوت السموات والأرض على هذا النحو سيؤدى الى

---

(١) وردت مادة عقل وما اشتق منها فى القرآن تسعة واربعين **والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضــلناهم على كثير ممن خلقنــا تفضيلا))** (الاسراء : ٧٠) .

(٢) راجع أيضا دراسات اسلامية للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٣٣ وما بعدها . دار القلم بالكويت ١٩٨٠ .

(٣) الأحزاب : ٧٢ . (٤) الجاثية : ١٣ .

الرقى المادى ، وفى الوقت نفسه الى الرقى الروحى (١) . يقول القرآن « **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق** » (٢) .

***

٣ ـــ العقل ووظيفته :

ولم يبلغ الانسان كل هذا التكريم الذى سما به فوق كل الكائنات الا بالعقل الذى اختصه الله به وميزه به على سائر المخلوقات ، وقد نوه الاسلام بالعقل والتعويل عليه فى أمور العقيدة والمسئولية والتكليف . ولا تأتى الاشارة الى العقل فى القرآن الكريم الا فى مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه وذلك ما يؤخذ من كل الآيات القرآنية التى وردت الاشارة فيها الى العقل (٣) .

---

(١) راجع مقالنا : « سبيلنا الأوحد للحضارة الحقيقية » المنشور بمجلة (المسلمون) الدولية بلندن . العدد ٢٢ (٢٦ مارس ١٩٨٢ ـــ ١ جمادى الآخرة ١٤٠٢ هـ) .

(٢) فصلت : ٥٣ .

(٣) العقل من حيث مدلوله اللفظى العام ملكة يناط بها الوازع الأخلاقى أو المنع عما هو محظور ومنكور . ومن هنا كان اشتقاقه من مادة عقل التى يؤخذ منها العقال . وفى ذلك يقول الجاحظ : « وانما سمى العقل عقلا لأنه يزم اللسان ويخطمه عن أن يمضى فرطا فى سبيل الجهل والخطأ والمضرة كما يعقل البعير » . وللعقل خصائص عديدة : منها أنه ملكة الادراك التى يناط بها الفهم والتصور وادراك الأمور ، ومنها أنه ملكة الحكم فهو يتأمل فيما يدركه ويقلبه على جميع وجوهه ويحكم عليه . ويتصل بملكة الحكم ملكة الحكمة أيضا ، وذلك اذا انتهت حكمة الحكيم به الى العلم بما يحسن وما يقبح وما ينبغى له أن يطلبه وما ينبغى له أن يأباه ، ومن خصائص العقل أيضا الرشد وهو تمام النضج : فالعقل الرشيد ينجو به الرشاد من الوقوع فى مهاوى النقص والاختلال . راجع : التفكير فريضة اسلامية للاستاذ عباس العقاد ص ٨ وما بعدها ، دار الكتاب العربى ـــ بيروت ١٩٦٩ ، وتجديد الفكر العربى للدكتور زكى نجيب محمود ص ٣١٠ ، دار الشروق بيروت ١٩٧١ .

ولم يكن من قبيل المصادفة أن تكون الاشارة الى العقل فى القرآن فى صيغ عديدة ، فتارة بلفظ القلب او الفؤاد ، وتارة فى صيغة افعال بلفظ المفرد أو بلفظ الجمع مثل : يعقلون — يفقهون — يتفكرون — ينظرون — يبصرون — يعتبرون — يتدبرون — يعلمون — يتذكرون ، وتارة ثالثة فى صيغة أولى الألباب أو أولى الابصار او أولى النهى . فقد أراد القرآن أن يعبر بذلك عن الوظائف العقلية التى أراد الله للعقل الانسانى أن يمارسها فى هذا الوجود (١) .

والاســـلام عندما يخاطب العقل فانه يخاطبـــه بكل ملكاته وخصائصه .. فهو يخاطب العقل الذى يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ويوازن بين الأضداد ويتأمل ويعتبر ويتعظ ويتدبر ويحسن التدبر والروية (٢) .

وقد وعى رجال الفكر الاســـلامى القيمة الكبرى التى يسبغها الاسلام على العقل فقال عنه حجة الاسلام الغزالى (٤٥٠ — ٥٠٥ هـ) ان العقل « أنموذج من نور الله » (٣) وقال عنه الجاحظ (توفى عـــام ٢٥٥ هـ) : أنه وكيل الله عند الانسان (٤) .

واذا كانت وظيفة العقل على هذا النحو فان محاولة تعطيله عن اداء هذه الوظيفة يعد تعطيلا للحكمة التى أرادها الله من خلق العقل ، مثلما يعطل الانســـان حاســـة من الحواس التى انعم الله بها عليه عن أداء وظيفتها التى خلقت من أجلها . وهؤلاء الذين يفعلون ذلك يصفهم القرآن بأنهم أحط درجة من الحيوان حيث يقول : **« لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بهـــا ولهم آذان**

---

(١) وردت مادة عقل وما اشتق منها فى القرآن تسعة وأربعين مرة ، وردت مادة فقه وما اشتق منها عشرين مرة ، ومادة فكر وما اشتق منها ثمانى عشرة مرة ، وورد تعبير أولى الألباب ســـت عشرة مرة . هذا بالاضافة الى عشرات المرات التى وردت فيها بقية الألفاظ التى تعبر عن وظائف العقل المختلفة .

(٢) التفكير فريضة اسلامية ص ٢٠ .

(٣) مشكاة الأنوار للامام الغزالى ص ٤٤ . القاهرة ١٩٦٤ .

(٤) نقلا عن : تجديد الفكر العربى ص ٣١٠ .

لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل » (١) . ومن هذا المنطلق يعتبر الاسلام عدم استخدام العقل خطيئة من الخطايا . يقول القرآن حكاية عن الكفار يوم القيامة « **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم »** (٢) .

ولهذا كانت دعوة القرآن للانسان لاستخدام ملكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل . وهكذا يجعل الاسلام التفكير واجبا مقررا وفريضة اسلامية .. ومن هنا قرر ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات واعتبارها ، وذلك أخذا من آيات القرآن العديدة فى هذا الشأن (٣) .

واذا كانت ممارسة الوظائف العقلية تعد واجبا دينيا فى الاسلام فانها من ناحية أخرى مسئولية حتمية لا يستطيع الانسان الفكاك منها ، وسيحاسب على مدى حسن أو اساءة استخدامه لها مثلما يسئل عن استخدامه لباقى وسائل الادراك الحسية وفى ذلك يقول القرآن « **ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »** (٤) .

***

٤ — تمهيد الطريق امام العقل :

ومن منطلق حرص الاسلام على ممارسة العقل لوظائفه التى أرادها الله كان حرص الاسلام شديدا على ازالة كافة العوائق التى تعوق العقل عن ممارسة نشاطاته .

---

(١) الأعراف : ١٧٩ . (٢) الملك : ١٠ ، ١١ .

(٣) فصل المقال لابن رشد ص ١٠ (مطبوع مع الكشف عن مناهج الأدلة تحت عنوان فلسفة ابن رشد — المكتبة المحمودية التجارية بالأزهر ١٩٦٨) .

(٤) الاسراء : ٣٦ .

ولهذا طالب الاسلام بتحطيم هذه العوائق ليشق العقل طريقه للفهم الصحيح والتفكير السليم ويتجلى لنا ذلك واضحا من النقـــاط التـــالية :

(أ) رفض التبعية الفكرية والتقليد الأعمى . فالاسلام عندما أمرنا بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون نهانا فى الوقت نفســـه عن التقليد الذى فيه تعطيل للعقل عن أداء دوره فى الوجود . فالتقليد ضلال يعذر فيه الحيوان ، ولا يصح بحال من الأحوال من الانسان القادر على التفكير والتمييز . ولهذا عـــاب القرآن على المشركين تقليدهم الأعمى لأعرافهم وتقاليدهم واسلافهم مستنكرا مثل هذا التقليد ، وفى ذلك يحكى عنهم قولهم **« حســبنا ما وجدنا عليه آباءنا »** ويتســاءل فى استنكار : **« أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون »**(١) . وقد حذر النبى ﷺ أيضا من التقليد الأعمى قائلا : « لا تكونوا امعة » (٢) بمعنى لا تكونوا مقلدين للآخرين تقليدا أعمى .

(ب) القضاء على الدجل والشعوذة والاعتقاد فى الخرافات والأوهام وابطال الكهانة . فلا كهانة فى الاسلام وليس هناك مخلوق يتحكم باسم الدين فى رقاب العباد ، فلا ضر ولا نفع الا بارادة الله الذى يقول لنا فى القرآن انه أقرب الينا من حبل الوريد . وأنه قريب يجيب دعوة من يدعـــوه . والرســـول ﷺ يقـــول « اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله » (٣) .

---

(١) المائدة : ١٠٤ .

(٢) رواه الترمذى ونصه : « لا تكونوا امعة : تقولون ان احسن الناس احسنا ، وان ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا انفسكم ان احسن الناس أن تحسنوا وان اساءوا فلا تظلموا » .

(٣) رواه الترمذى والامام احمد .

وعقائد الاسلام واضحة ليس فيها ما يتعارض مع مقررات العقل السليم . وقد وقف الرسول بحزم فى وجه الخرافات والأوهام . وعندما مات ابنه ابراهيم تصادف أن كسفت الشمس فى ذلك اليوم فقال البعض ان كسوف الشمس هو مشاركة فى الحزن على موت ابراهيم . وقد واجه النبى ذلك بحسم قاطع قائلا : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد » (١) .

(ج) تركيز الاسلام على المسئولية الفردية . فكل فرد مسئول عن أعماله مسئولية تامة ، وليس هناك خطيئة موروثة ، وآيات القرآن فى هذا الشأن واضحة صريحة . وهذه المسئولية الفردية لا تقوم الا على أساس حرير الفرد واطمئنانه الى حقوقه فى الأمن على نفسه وعقله وماله . وقد جعل الاسلام الأمن على العقل من بين المقاصد الضرورية الأساسية التى قصدت اليها الشريعة الاسلامية لقيام مصالح الدين والدنيا . وهذه المقاصد الضرورية هى حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال (٢) .

(د) حرر الاسلام الفرد المؤمن بعقيدة التوحيد من الخوف المهين من السلطة الدنيوية ورفعه الى مقام العزة التى يقول القرآن فيها **« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »** (٣) ، ويقول الرسول أيضا « اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس » (٤) ، كما قرر الاسلام

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) انظر الموافقات للشاطبى ج ٢ ص ١٠ . دار المعرفة — بيروت .

(٣) المنافقون : ٨ .

(٤) رواه تمام فى فوائده وابن عساكر فى تاريخه . والحديث معناه صحيح وان تكلم علماء الحديث فى سنده .

الا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وأن المؤمن لا يخشى فى الحق لومة لائم .

وهكذا كفل الاسلام للانسان المناخ الحقيقى الذى يستطيع فيه أن يفكر ويتأمل ويعى ويفهم . وبهذا أطلق الاسلام سلطان العقل من كل ما كان يقيده ، وخلصه من كل تقليد كان يستعبده ، وبهذا تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر (١) . وقد كان لهذا الموقف الأساسى للاسلام من العقل أثره العظيم فى صياغة الحضارة الاسلامية والعقلية الاسـلامية .

وبعد هذا التمهيد الضرورى عن موقف الاسلام من العقل يحق لنا الآن أن ننتقل الى الحديث عن دور الاسلام فى تطور الفكر بصفة عامة والفكر الفلسفى بصفة خاصة .

***

● ثانيا — دور الاسلام فى تطور الفكر الفلسفى :

وهذا الموضوع نريد أن نتناوله من ناحيتين : أولهما تتمثل فى الاشارة الى بعض الأفكار الهامة التى اشتملت عليها تعاليم الاسلام وكان لها أثرها ولا يزال فى تطور الفكر ، وثانيهما تتمثل فى الاشارة الى انتقال الفكر الاسلامى الى أوروبا ومدى ما قام به هذا الفكر من تنشيط ودعم للنهضة الفكرية والحضارية فى الغرب .

١ — الجانب الفكرى :

(أ) نظرة عامة :

لقد اتضح لنا مما تقدم أن الاسلام قد قام بتوفير كافة الشروط

---

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١٢٣ (دار احيـاء العلوم بيروت ١٩٧٩) .

الضرورية لقيام حركة فكرية فى أوساط المسلمين . وقد قامت هذه الحركة الفكرية بالفعل ، وازدهرت فى كافة بلاد المسلمين وانتشرت بينهم كل ألوان الثقافات ، وتفاعل الفكر الاسلامى مع هذه الثقافات المختلفة ، ولم يرفض المسلمون ثقافة من الثقافات لمجرد الرفض ، وانما ساروا فى ذلك على مبدأ قرآنى يقول : ((**فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض**)) (١) وهذا يعنى قبول كل ما هو ايجابى نافع ورفض كل ما هو سلبى لا خير فيه . وقد كانت كلمات الرسول عليه السلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » (٢) وقوله « الحكمة ضالة المؤمن » (٣) أى هى ذلك الشىء الذى ينشده المؤمن فاذا وجدها فى أى مكان اخذها — كانت هذه الكلمات نبراسا يضىء للعقول طريقها نحو العلم والمعرفة بلا حدود .

وقد رفع القرآن من شأن العلم والعلماء فى آيات صريحة وأشادت أول كلمات نزلت من السماء على محمد ﷺ بالعلم ، واعتبر القرآن العلماء أخشى الناس لله لأنهم الذين يدركون أسرار الله فى خلقه ويعون روعة الكون وجمال الخلق وجلال الخالق . وجعل الاسلام مداد العلماء كدماء الشهداء .

ولم تكن الأسس التى وضعها الاسلام لتطوير الفكر والنهوض به مجرد أسس نظرية وانما كانت خطوات عملية أثمرت ثمارها فى المجتمع الاسلامى ، فكانت دولة الاسلام أرحب الدول صدرا

---

(١) الرعد : ١٧ .

(٢) رواه ابن ماجه بلفظ « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ومن الواضح أن لفظ المسلم هنا يعنى الفرد المسلم رجلا كان أو امرأة .

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه .

واسمحها فكرا مع الفلسفة والفلاسفة ، ومن أصيب من الفلاسفة المسلمين يوما بمكروه فانما كان ذلك من كيد السياسة ، ولم يكن من حرج بالفلسفة أو حجر على الأفكار . فالاسلام بتعاليمه يستطيع أن يواجه أية ثقافة فكرية انسانية دون أن يخشى عليه طالما وجد من المنتسبين اليه من يستطيع فهمه فى أصوله وغايته (١) . ولم يحدث أن وقف الدين الاسلامى عقبة فى سبيل البحث فى العلوم الطبيعية على النحو الذى شهدته أوروبا فى العصور الوسطى ، بل كان الاسلام دائما وراء كل انجاز حققه العلماء المسلمون فى هذا المجال .

وبالاضافة الى ما تقدم نجد فى القرآن شواهد لا حصر لها يتجلى لنا منها اطلاق القرآن للطاقات الفكرية اطلاقا لا حد له . ومن بين هذه الشواهد ما يلى (٢) :

أولا : يعرض القرآن بكل أمانة ودقة آراء المخالفين ثم يتبعها بالرد الحاسم القائم على المنطق السليم وقوانين الفطرة السليمة . فقد ذكر وجهات نظر الوثنيين والدهريين والماديين والكفار والمنافقين ، وعقب عليها تعقيبا مقنعا مستخدما فى ذلك أنصع البراهين وأقوى الأدلة . فالكفار مثلا حين ينكرون البعث بعد الموت ويقولون : **« ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر »** يعقب القرآن على ذلك بقوله : **« وما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون »** (٣) وهنا

---

(١) راجع : التفكير فريضة اسلامية ص ٥٩ ، ٦٠ والفكر الاسلامى فى تطوره للدكتور محمد البهى ص ١٠ مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٨١م .

(٢) انظر : تأملات فى الفكر الاسلامى للدكتور محمد كمال جعفر ص ٨٧ وما بعدها — مكتبة دار العلوم بالقاهرة ١٩٨٠م .

(٣) الجاثية : ٢٤ .

يفرق القرآن بين الظن والعلم ، موجها نظرنا الى ضرورة فحص الأحكام والتأكد من مصدرها وفى ذلك ما فيه من الدعوة الى النقد الموضوعى .

ويحذر القرآن من اصدار الأحكام فى امور لا علم للانسان بها حتى لا يقع فى الخطأ والتناقض . فيقول : ((**ولا تقف ما ليس لك به علم**)) (١) . وعندما زعم الكفار ان الملائكة اناث عقب القرآن على زعمهم بقوله : ((**اشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسئلون**)) (٢) . وهنا يريد القرآن أن يقول لهم : ان هذه الفكرة التى تزعمونها اذا كانت صحيحة فانها لابد أن تكون مبنية على الملاحظة والمشاهدة اللتان هما وسيلتان من وسائل العلم والمعرفة الصحيحة .

ثانيا : يعرض علينا القرآن قصة ابراهيم عليه السلام مع قومه والنقاش العقلى الذى دار بينه وبينهم حول الألوهية ، وما اشتمل عليه هذا النقاش من ادلة عقلية فى صورة متدرجة فى تسلسل منطقى رائع . تحمل العقل على محاكاتها للوصول الى نفس نتائجها وهى الوصول الى اليقين الذى تشير اليه الآية فى نهاية القصة ((**وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين**)) (٣) .

وقد ازدانت الحضارة الاسلامية بأعلام من المع المفكرين فى المجال الفلسفى من أمثال الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى وابن باجه وابن طفيل وابن رشد . وقد شهد القرن التاسع والعاشر الميلاديين حركة عقلية نشيطة دائبة لدى المسلمين .

---

(١) الاسراء : ٣٦ . (٢) الزخرف : ١٩ .
(٣) الأنعام : ٧٥ .

واذا كان المسلمون قد نقلوا الفلسفة اليونانية الى العربية فانهم قد برهنوا على قدرتهم على هضمها والاضافة اليها ونقد ما فيها من قصور ، مدركين أن الفكر الفلسفى فكر متطور وليس فكرا جامدا . فالبناء الفلسفى كما يقول أبو بكر الرازى (٨٦٤ — ٩٢٥م) بناء تشترك فيه الأجيال ، ويضيف اليه كل جيل شيئا جديدا (١) ، يمهد به السبيل لمن يجيء بعده . فالكلمة الأخيرة فى الفلسفة لم يقلها جيل بعينه والا أصيب الفكر بالجمود وحكم عليه بالعقم الأبدى .

وقد برع العقل الاسلامى فى ميادين أخرى كثيرة . ويمكننا أن نشير فى هذا الصدد الى ابتكار المسلمين علم الجبر من عدم . وما يزال هذا العلم يحمل اسمه العربى فى لغات الغرب ، وأضاف المسلمون الى الأعداد المعروفة فى الغرب بالأعداد العربية — أضافوا اليها الصفر الذى احدث ثورة حقيقية فى علم الحساب ، وكان احد علماء المسلمين فى الرياضة وهو الخوارزمى (توفى حوالى ٨٤٧م) هو الذى ابتدع اللوغاريتم (٢) .

---

(١) ونص عبارة الرازى فى ذلك كما ورد فى رسائله الفلسفية : « اعلم أن كل متأخر من الفلاسفة اذا صرف همته الى النظر فى الفلسفة وواظب على ذلك واجتهد فيه وبحث عن الذى اختلفوا فيه لدقته وصعوبته علم علم من تقدمه منهم وحفظه واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء اخرى ، لأنه مهر بعلم من تقدمه وفطن لفوائد أخرى واستفضلها اذ كان البحث والنظر والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل » . انظر مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى للدكتور فرانتز روزنتال ص ١٨٥ ترجمة انيس فريحه — دار الثقافة بيروت ١٩٨٠ .

(٢) راجع هموم المثقفين للدكتور زكى نجيب محمود ٩٠/٩١ دار الشروق — القاهرة — بيروت .

ولسنا هنا فى مجال حصر ابداع العقل الاسلامى فى دنيا العلوم على اختلاف أنواعها ، فهذا مجال يطول فيه الحصر . ولسنا هنا أيضـا فى معرض التغنى بالأمجاد أو اجترار الذكريات الجميلة ، ولكننا نقرر فقط بعض الواقع الذى كـان اثرا من آثار التعاليم الاسلامية التى هيأت للعقل الاسلامى هذه الانطلاقة الفذة التى انتقلت بعد ذلك الى أوروبا عن طريق الترجمات المختلفة التى بدأت فى بواكير القرن الثانى عشر فأحدثت فيها يقظة جديدة شهد بهـا المؤرخون الأوروبيون المنصفون .

ونريد الآن أن نبرز بعض الأفكار الهامة التى قدمها الاسلام وكانت ذات أثر حاسم فى التطور الفكرى والحضارى . وسنكتفى فى هذا الصدد بثلاثة أمثلة وهى : مبدأ الاجتهاد أو الاستقلال العقلى ، وفكرة التوفيق أو الوسطية ، وأخيرا النظرة الاسلامية للتاريخ . وفيما يلى نلقى بعض الضوء على هذه الأفكار .

***

(ب) مبدأ الاجتهاد :

لقد أكد الاسلام على فكرتى التوحيد وختم النبوة ، ويعنى ذلك رفع الوصاية عن العقل . فعلى العقل اذن بعد أن انتهت النبوة وانقطع الوحى السماوى أن يعتمد على نفسه فى كل ما لم يرد فيه نص دينى ، وعلى العقل أن يثق فى قدراته . وقد كانت مناشدة القرآن للعقل وللتجربة على الدوام واصراره على أن النظر فى الكون والوقوف على أخبار الأولين مصدر من مصادر المعرفة الانسانية — كانت كلها صورا مختلفة لفكرة انتهاء النبوة .

ومن هذا المنطلق كانت هناك خطوات عملية هامة قام بها الاسلام للمساعدة على تطوير الفكر وتحريكه لاستمرار التقدم وتطوير الحياة .

ومن بين هذه الخطوات كان مبدأ الاجتهاد ، أى الاعتماد على الفكر فى استنباط الأحكام الشرعية . وقد كان ذلك بداية النظر العقلى عند المسلمين . وقد نما هذا الاجتهاد فى رعاية القرآن . ويعتبر الاجتهاد مبـــدأ الحركة أو الديناميكية فى بناء الاســـلام كما يقول « اقبال » (١) (توفى عام ١٩٣٨) .

لقد امتدت سماحة الاسلام الى افساح المجال أمام العقل فى مجال الأحكام الشرعية التى لم ترد فيها نصوص ، فأباح له الاعتماد على نفسه وشجعه على ذلك ودفعه اليه دفعا . وتقررت فى ذلك قاعدة اسلامية تقول : ان المجتهد اذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد واذا اجتهد فأصاب فله اجران ، وقد روى عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ لما بعثه واليا الى اليمن قال له : كيف تقضى اذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله . قال : فان لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ ، قال فان لم يكن فى سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رايى . فوافقه النبى ﷺ على ذلك ومدحه على حسن ادراكه وفهمه (٢) .

وقد كان لمبدأ الاجتهاد أثره العظيم فى اثراء الدراسات الفقهية لدى المسلمين وايجاد الحلول السريعة للمسائل التى لم يكن لها نظير فى العهد الاول للاسلام . وقد نشأت عنه مذاهب الفقه الاسلامى الأربعة المشهورة التى لا يزال العالم الاسلامى يسير على تعاليمها حتى اليوم ، وادى الاجتهاد ايضا الى ظهور علم فلسفى هـــو علم اصول الفقه الذى يعد بمثابة فلسفة للتشريع الاسلامى . وكان

---

(١) انظر تجديد التفكير الدينى فى الاسلام للدكتور محمد اقبال ترجمة عباس محمود ص ١٤٤ ، ١٦٨ — ١٧٠ . القاهرة ١٩٦٨ .

(٢) راجع جامع بيان العلم وفضله لأبى عمر يوســف بن عبد البر ج ٢ ص ٦٩ (المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨م) .

أول من ابتكر هذا العلم هو الامام الشافعى ، وذلك قبل أن يتأثر الفكر الاسلامى بالفلسفة اليونانية (١) .

وهكذا كان ركون المسلم الى عقله فيما يشكل عليه مما لم يرد فى شأنه نصوص هو الدعامة الأولى فى الوقفة العقلية عند الاسلام ، تلك الوقفة التى أقام عليها حضـــارته وثقافته على امتداد تاريخه خلال القرون التى شهدت قوته وقدرته على الابداع (٢) .

***

(جـ) فكرة التوفيق او الوسطية :

أما الفكرة الثانية وهى فكرة التوفيق أو الوسطية فنراها تسود تعاليم الاسلام ، فالانسان جسم وروح ، ولا يريد الاسلام ان يغلب أحدهما على الآخر بطريقة تخل بالتوازن بينهما ، وانما يحرص على التوفيق بين مطالب الجسم ومطالب الروح فى تناسق رائع . فالانسان له أن يتمتع بكل الخيرات التى أحلها الله له فى هذه الحياة . وفى الوقت نفسه لا ينبغى له أن يهمل مطالب روحه ، يقول القرآن : **((وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا)) (٣)** ويقول الرسول ﷺ . ((اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .)) (٤) .

---

(١) انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية للشـــيخ مصطفى عبد الرازق ص ١٢٣ — مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٦٦ .

(٢) هموم المثقفين ص ٨١ . (٣) القصص : ٧٧ .

(٤) على الرغم من أن علماء الحديث قد تكلموا فى سند هذا الحديث فان معناه صحيح . وقد رواه ابن قتيبة فى غريب الحديث موقوفا عن عبد الله بن عمر ، ورواه ابن المبارك فى الزهد من طريق آخر موقوفا على عبد الله بن عمرو بن العاص ، ورواه البيهقى مرفوعا عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ .

وقد سمع النبى ﷺ ثلاثة من أصحابه يتحدثون عن عبادتهم ووجد أنهم يبالغون فى العبادة الى حد اهمال مطالب الجسد اهمالا يكاد يكون ناما . فقد قال أحدهم انه يقضى ليله دائما فى الصلاة ، وقال الآخر انه يصوم بصفة مستمرة ، وقال الثالث انه يعتزل النساء ولا يتزوج أبدا . فلم يوافقهم النبى على ذلك وبين لهم أنه أخشاهم لله وأتقاهم له ومع ذلك فهو يصوم ويفطر ، ويصلى ويرقد ، ويتزوج النساء ، وأن هذه هى سنته التى ينبغى السير على نهجها وأن من ابتعد عن هـــذا الخط الواضـــح كان بعيـــدا عن النبى وتعاليمه (١) .

وهذه الفكرة التى رأيناها تسود العلاقة بين الجسم والروح وهى فكرة التوفيق أو الوسطية نجد لها نظيرا فى العلاقة بين العقل والدين . فالاسلام يحرص أشد الحرص على ألا يكون هناك نزاع أو تناقض بين العقل والدين ، فكلاهما من مصدر واحد ، قد خلقهما الله لهداية الانسان وارشاده ، وكلاهما أثر من آثار الكامل وهو الله ، وآثار الكامل لا يناقض بعضها بعضا .

ولا يجوز من وجهة النظر الاسلامية وضع المسألة على أساس أن هناك خصومة بين الدين والعقل ، وأن الانسان فى موقف الاختيار بينهما . فهما عنصران جوهريان يتلازمان ولا يتناقضان ، والانسان فى حاجة اليهما معا . والدين الصحيح لا يمنع العقل البشرى من التفلسف ومن حقه فى الفهم والتفكير فى ملكوت السموات والأرض ، وانما يدفعه الى ذلك دفعا . والاسلام يعتبر العقل مناط انسانية الانسان وجوهرها ، فاذا عطل بالجهل والغفلة والعمى مسخت بشرية الانسان وهبط بذلك الى مرتبة الحيوان .

---

(١) انظر نص هذا الحديث فى صحيح البخارى مرويا عن أنس ابن مالك (كتاب النكاح) .

وهكذا حسم الاسلام الخصومة المصطنعة بين الدين والعقل ، وحرر الانسان من أزمة الصدام بين الدين والعلم . ولهذا فليس الاسلام فى حاجة الى العلمانية (Secularization) لأن الأسباب التى أدت الى العلمانية فى أوروبا لا مكان لها فى الاسلام ، والزعم الشائع فى تاريخ الفكر الانسانى بأن هناك صراعا مستمرا وتناقضا أبديا بين الدين و لعقل أو بين الدين والعلم لا ينطبق بحال من الأحوال على الدين الاسلامى ، فكلاهما — الدين والعقل — يشكلان فى الاسلام وحدة واحدة .

وقد كان لفكرة التوفيق وروح الاعتدال التى تنطوى عليها تعاليم الاسلام أثرها العظيم فى سريان هذه الروح وانتشار هذه الفكرة فى الحضارة الاسلامية بصفة عامة والثقافة الفلسفية بصفة خاصة . ولهذا رأينا الفلاسفة المسلمين يتجهون فى فلسفتهم الى تأكيد التوفيق بين الدين والفلسفة ، وبيان توافق المصدرين : مصدر الدين ومصدر الفلسفة — فى المعرفة والوصول الى الحقيقة . وقد اتخذ التوفيق لديهم صورا عديدة .

فقد ذكر ابن مسكويه (ت ٤٢١ هـ — ١٠٣٠م) على الغاية . ولهذا اهتم بالتوفيق بين غاية كل من الأخلاق — وهى فرع من فروع الفلسفة — و لدين من حيث أن كلا منهما يهدف الى سعادة الانسان (١) . وكذلك اهتم ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ — ١٠٦٣م) بالمعنى العملى لكل من الفلسفة والدين وذهب الى أن غرضهما هو اصلاح النفس وانه لا خلاف بين الفلسفة والشريعة فى ذلك (٢) .

---

(١) انظر فلسفة الأخلاق فى الاسلام للدكتور محمد يوسف موسى ص ٦٦ . القاهرة ١٩٦٣ .

(٢) انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٧٧ .

أما الكندى (ت ٢٥٢ هـ ـــ ٨٦٥ م) الذى عرف الفلسفة بأنها علم الأشياء بحقائقها فانه يرى أنها لا يمكن أن تتناقض اطلاقا مع الدين ، فغايتهما واحدة (١) . ويقرر الكندى صراحة توافق العقل والنقل ، أو الفلسفة والدين . وفى هذا الصدد يقول فى رسالته الى المعتصم ـــ وهى الرسالة التى تدور حول علم الأشياء بحقائقها ، أى حول الفلسفة ـــ :

« علم الربوبية وعلم الوحدانية وعلم الفضيلة ، وجملة علم كل نافع والسبيل اليه ، والبعد عن كل ضار والاحتراس منه ، واقتناء هذه جميعا هو الذى أتت به الرسل الصادقة عن الله جل ثناؤه ، فان الرسل الصادقة صلوات الله عليها انما أتت بالاقرار بربوبية الله وحده ، وبلزوم الفضائل المرتضاة عنده ، وترك الرذائل المضادة للفضائل فى ذواتها وآثارها » (٢) .

ويرى الفارابى (ت ٣٣٩ هـ ـــ ٩٥٠م) أن موضوعات الدين وموضوعات الفلسفة واحدة (فكلاهما يعطى المبادىء القصوى للموجودات . فانهما يعطيان علم المبدأ الأول والسبب الأول للموجودات، ويعطيان الغاية القصوى التى لأجلها كون الانسان وهى السعادة القصوى) . والفلسفة الصحيحة لا تتناقض مع الدين الصحيح ، فان بدا هناك بعض النفور أو التناقض بين الطرفين فما ذلك الا لأن النظام الفلسفى الذى تناقض مع الدين يعتبر نظاما واهيا لم تكتمل

---

(١) انظر المزيد من التفصيل فى ذلك للدكتور محمد عبد الهادى ابو ريده فى كتابه : الكندى وفلسفته ص ٥٣ وما بعدها (دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٥٠) .

(٢) رسائل الكندى الفلسفية جـ ١ ص ١٠٤ (نقلا عن : تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام للدكتور محمد على ابو ريان ص ٣٤٣ ـــ الاسكندرية ١٩٨٣) .

فيه البراهين المؤدية الى اليقين ، فالحقيقة واحدة لدى الفارابى ولكن الطريق اليها متعدد (١) .

ويرى ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ — ١٠٣٦م) انه لا يوجد فى اقسام الحكمة (أى الفلسفة) ما يخالف الدين أو يتعارض معه . ويرجع ضلال أدعياء الفلسفة عن منهاج الشرع الى قصور فى تفكيرهم وعجز فى أفهامهم . وفى ذلك يقول : لقد « ظهر أنه ليس شىء منها (أى الفلسفة) يشتمل على ما يخالف الشرع ، فان الذين يدعونها ثم يزيغون عن منهاج الشرع انما يضلون من تلقاء أنفسهم ومن عجزهم وتقصيرهم لا أن الصناعة نفسها توجبه ، فانها بريئة منهم » (٢) .

وقد بين طفيل (ت ٥٨١ هـ — ١١٨٥ م) فى قصته الفلسفية المشهورة (حى بن يقظان) كيف يستطيع الانسان عن طريق عقله ودون معونة من خارج أن يتوصل الى معرفة العالم العلوى ويهتدى الى معرفة الله وخلود النفس ، وان ما يتوصل اليه من معارف لا يتناقض مع مقررات الدين (٣) .

اما ابن رشد فقد تناول بالمقارنة العامة الخطوط الأساسية لكل من الدين والفلسفة رغم اختلاف منهجيهما ، وبين فى كتابه (فصل المقال) اتفاق الدين والفلسفة قائلا : « ان الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له » ، وقال ايضا « ان الحكمة (أى الفلسفة)

---

(١) انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٧٨ . وتأملات فى الفكر الاسلامى ص ٣٠٤ وما بعدها .

(٢) نقلا عن تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٦١ .

(٣) انظر تاريخ الفلسفة فى الاسلام لديبور وترجمة الدكتور أبو ريده ص ٣٧٧ (القاهرة ١٩٥٧) .

هى صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة » (١) .

أما الامام الغزالى (ت ٥٠٥ هـ — ١١١١م) فقد حرص على ضرورة الحفاظ على وحدة العقل والدين وان كان لم يذكر الفلسفة فى هذا الصدد باللفظ . فالانسان كما يقول — لا يستطيع أن يستغنى عن الدين أو العقل . فالعقل كالأساس والدين كالبناء ولا يمكن تصور أحدهما بدون الآخر ، فلا نفع فى أساس بدون بناء ، ولا ثبات لبناء بدون أساس . ولذلك يرى الغزالى أنهما متحدان اتحادا لا يمكن فصله ، ومن يجرؤ على تعطيل اى منهما فهو — فى راى الغزالى — اما جاهل أو مغرور .

واذا لم يكن هناك تناقض بين العقل والدين فانه ليس هناك أيضا — كما يقول — تناقض بين العلوم العقلية والعلوم الدينية ، وعدم القدرة على الربط بينهما يرجع فى رأيه الى عمى فى البصيرة يحجب الرؤية الصحيحة (٢) .

فاذا انتقلنا من عصر تلك النخبة الشهيرة من فلاسفة المسلمين واتجهنا الى العصر الحديث نجد الامام محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥) يقول فى علاقة الدين بالعقل فى الاسلام : « لقد تآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل بتصريح لا يقبل التأويل » وتقرر بين المسلمين كافة — الا من لا ثقة بدينه ولا بعقله — أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به الا من طريق العقل كالعلم

(١) راجع فصل المقال لابن رشد ص ١٥ ، ٣٦/٣٥ .

(٢) راجع معارج القدسى للغزالى ص ٤٦ (المكتبة التجارية الكبرى — بدون تاريخ) ، واحياء علوم الدين جـ ٣ ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، (طبع مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة ١٩٣٩) .

بوجود الله وارسال الرسل وادراك فحوى الرسالة والتصـــديق بها ، كما أجمعوا على ان الدين اذا أتى بشىء يعلو على الفهم فلا يمكن ان يأتى بما يستحيل عند العقل . فالعقل من أشد أعوان الدين الاسلامى (١) .

ومن كل ذلك يتضح لنا ان وحدة الدين والعقل هى الخط الواضح للاسلام . والذى يدرس تاريخ العلوم الاسلامية وتطورها يرى أن روح التوفيق بصفة عامة كانت طابعا عاما للمسلمين فى كل العلوم النظرية تقريبا . فنلحن نجدها فى علم العقيدة وفى الفقه والتشريع وفى التصوف وفى الفلسفة (٢) . وكان الهدف الأكبر لفلاسفة العرب هو أن يقدموا للعالم نظرية كاملة عن وحدة الكون ترضى الدين والعقل معا ، ولذلك ســـعوا الى التوفيق بين الجانب الخلقى والروحى والجانب الفلسفى من العلم (٣) .

ويبرز بعض الباحثين المسلمين المعاصرين أهمية الدور الكبير للاسلام فى تطور الفكر الانسانى بصفة عامة . ويتمثل ذلك فيما قامت به الثقافة الاسلامية من دمج عظيم للعناصر الايجابية فى حضارتين متجاورتين ومتنافرتين وهما حضارة الفرس وثقافتهم من جهة وحضارة الروم وثقافتهم من جهة أخرى . فقد كانت الأولى ذات صبغة صوفية والثانية ذات صبغة عقلية . وبظهور الاسلام

---

(١) رسالة التوحيد ص ٤٥ ، ٥٣ .

(٢) انظر تعليق الدكتور محمد يوسف موسى فى ص ١٩٧/١٩٨ من ترجمته لكتاب جوتييه : المدخل لدراسة الفلسفة الاســـلامية . القاهرة ١٩٤٥ .

(٣) انظر روح الاسلام من تأليف سيد أمير على وترجمة أمين محمود الشريف ص ٣١٥ (من سلسلة الألف كتاب . القاهـــرة ١٩٦١) .

وفتوحاته انهدمت الفواصل بين هاتين الثقافتين ، فأخرج الاسلام الى العالم صيغة حضارية ثقافية اسلامية جديدة تسع الانسان أينما كان ، فى اتجاه نحو عالمية الثقافة . ويرجع ذلك الى أن مبادىء العقيدة الاسلامية تشتمل على ما يهيىء الانسان لاستخدام المنطق العقلى فى شئون فكره ومعاشه ، كما تشتمل كذلك على ما يعده للاتصال بالله مباشرة مما لا يحتاج الى تدليلات المنطق العقلى . وهكذا التقى الشرق والغرب فى بوتقة واحدة . فقد جمعت الصيغة الجديدة بين ادراك الحدس الصوفى وادراك العقل الاستدلالى بحيث احتملت الحياة الثقافية فى الجماعة الاسلامية أن يظهر فيها أعظم المتصوفة وأعظم مناطقة العقل فى آن واحد (١) .

***

وبعد هذا العرض لفكرة التوفيق ننتقل الآن الى الاشارة باختصار الى الفكرة الثالثة المتمثلة فى نظرة الاسلام الى التاريخ .

(د) نظرة الأسلام الى التاريخ :

يشير القرآن فى كثير من آياته الى أن المعرفة الانسانية تعتمد على الحواس والعقل (٢) ، وهذا يعنى استبعاد كافة المعارف الأخرى التى تعتمد على الخرافات والأوهام أو الكهانة والسحر وما شاكل ذلك .

ونحن اذا تأملنا آيات القرآن فاننا نستطيع أن نستخرج أصول

---

(١) انظر هموم المثقفين ص ٨٢/٨٣ .

(٢) يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد : ((**والله اخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**)) (النحل : ٧٨) .

المعرفة بالحقائق الكبرى وهى : الله والكون والانسان والقيم ، وكذلك أصول تنظيم الحياة العملية وتشكيل الأخلاق ، ونجد فيه أيضـــا منهجا لتحصـــيل المعرفة الحســـية التجريبية والمعرفـــة النظرية (١) .

وقد اهتم القرآن أيضا بالتاريخ بوصفه أحد مصادر المعرفة الانسانية . فالقرآن يتحدث كثيرا عن الأمم السابقة ، ويدعو الى الاعتبار بتجارب البشر فى ماضيهم وحاضرهم . ويقدم القرآن فى هذا الصدد أصول منهج متكامل فى التعامل مع التاريخ البشرى ، ينتقل بهذا التعامل من مجرد العرض والتجميع الى محاولة استخلاص القوانين التى تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية (٢) ، تلك القوانين التى يعبر عنها القرآن بسنن الله .

ويهتم القرآن أيضـــا بالاشارة الى ضرورة التدقيق فى رواية الحقائق . وفى ذلك يقول : « **يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** » (٣) وبذلك وضع امامنا أهم قاعدة من قواعد النقـــد التاريخى ، وتتمثل فى أن أخلاق الراوى تعد عاملا هاما فى الحكم على روايته ، وقد أفاد المسلمون افادة عظيمة من هذه القاعدة وتطبيقها على رواة الأحاديث النبوية . وقد كان تطبيق هذا المنهج النقدى على رواة الأحاديث النبوية هو الذى تطورت عنه بالتدريج قواعد النقد التاريخى (٤) .

---

(١) انظر بحث الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة عن (مفهوم الوحى) فى : (الملتقى الاسلامى المسيحى الثانى) ص ١٠٤ . من منشورات الجامعة التونسية ١٩٨٠ .

(٢) انظر التفسير الاسلامى للتاريخ للدكتور عماد الدين خليل ص ٨ — دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٥ .

(٣) الحجرات : ٦ .

(٤) انظر تجديد التفكير الدينى فى الاســـلام لاقبال ص ١٦٠ وما بعدها .

وقد أمد القرآن المؤرخين المسلمين بفكرتين رئيسيتين كان لهما أثرهما فى توجيههم الى كتابة التاريخ كتابة علمية .

أما الفكرة الأولى فهى فكرة وحدة الأصل الانسانى . فالقرآن يقرر أن الله قد خلق الناس جميعا من نفس واحدة ، وأن من قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا . ويهدف القرآن من وراء هذه الفكرة أن تكون عاملا حيا فى الحياة اليومية لكل مسلم ، أما الفكرة الأخرى فتتمثل فى تصور الوجود حركة مستمرة فى الزمان . فالتاريخ حركة جمعية مستمرة وتطور حقيقى فى الزمان لا مفر منه . وقد كان لهذه التوجيهات القرآنية أثرها العظيم فى نظرة ابن خلدون الفلسفية للتاريخ . وكتاب ابن خلدون الشهير المسمى بالمقدمة يدين بالجانب الأكبر فيه الى ما استوحاه من القرآن (١) . وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ — ١٤٠٦ م) — كما هو معروف — يعد أول فيلسوف للتاريخ ورائدا عبقريا فى مجال الفلسفة الاجتماعية . فقد كان أول من حاول ان يربط بين تطور الاجتماع الانسانى وبين أسبابه القريبة ، مع حسن الادراك لمسائل البحث وتقريرها مؤيدة بالأدلة المقنعة . فهو ينظر فى أحوال الجنس والهواء ووجوه الكسب ونحوها ، ويعرضها مع بيان تأثيرها فى التكوين الجسمى والعقلى فى الفرد وفى المجتمع ، وهو يرى أن للمدنية والعمران البشرى قوانين ثابتة يسير عليها كل منهما فى تطوره (٢) .

وهكذا رأينا مدى اسهام الاسلام فى تطوير الفكر الفلسفى ودعمه وبناء الحضارة الانسانية من خلال الأمثلة التى عرضناها وهى مبدأ الاجتهاد وفكرة التوفيق والنظرة الاسلامية للتاريخ . ولسنا فى

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٠ — ١٦٢ .
(٢) انظر تاريخ الفلسفة فى الاسلام لديبور ص ٤١٠ .

حاجة الى التأكيد على أن هذه الأمثلة تمثل فقط بعض الأفكار — وليس كل الأفكار — التى أتى بها الاسلام فى هذا الصدد . ويبقى علينا الآن توضيح الجانب الآخر من القضية وهو الجانب التاريخى لبيان مدى تأثير الاسلام فى تطور الفكر الانسانى خارج نطاق العالم الاسلامى .

***

٢ — الجانب التاريخى :

(أ) التأثير الاسلامى فى فلسفة العصور الوسطى :

ليس هناك من شك فى ان التراث الحضارى الانسانى أخذ وعطاء ، وليست هناك أمة ذات حضارة عريقة الا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث . وليس من المعقول بالنسبة لأمة من الأمم تريد بناء نفسها أن تبدأ من نقطة الصفر وتعيد نفس التجارب التى مرت بها امم سابقة ، فهذا ضرب من العبث . والفكر لا يعترف بحدود مصطنعة بين الأمم ، بل يخترق الحواجز ويفرض نفسه رغم كل العقبات .

واذا كانت هـذه المقولة صحيحة ، ونعتقد أنها كذلك ، فانه لمن الغريب حقـا أن يحـاول بعض العلماء الأوروبيين بيان أثـر الفلسـفة اليونانيـة على الفلسـفة الاسـلامية لدرجـة وصلت بالبعض الى القـول بأن هـذه ليست الا الفلسـفة اليونانيـة مكتوبـة بحـروف عربيـة ، وفى الوقت نفسـه يرفض هـذا البعض — من منطلق عقـدة التفوق — رؤيـة أى أثـر للفكـر الاسلامى على الفكر الأوروبى . ونود هنا — بصدد دور الاسلام فى تطـور الفكر الفلسفى — أن نلمس موضـوع علاقة الفكر الاسلامى بالفكر الأوروبى لمسا خفيفا ، اذ اننا لن نستطيع فى هذا البحث الموجز أن نغطى كل نقاط هذا الموضـوع ونستوفى جميع جوانبه . وهذه العلاقة جديرة حقا بالبحث ، فلم يكن المسلمون

مجرد وسيلة آلية نقلت الى أوروبا فلسفة اليونان . فهذا منطق غير علمى وافتئات على الحقيقة .

لقد كان العلماء المسيحيون فى أوروبا يعملون جاهدين منذ عام ١١٣٠ على ترجمة الفلسفة العربية الى اللاتينية (١) . وقد التقى العالم المسيحى فى أوروبا بالعالم الاسلامى فى نقطتين : فى ايطاليا الجنوبية واسبانيا . وكانت توجد فى اسبانيا حركة ترجمة نشيطة . فقد كان يوجد فى مدينة طليطلة عندما فتحها المسيحيون مكتبة عربية حافلة فى أحد المساجد . وكانت هذه المكتبة ذات شهرة عظيمة (٢) . ويرتبط انتقال المادة الفلسفية العربية الى اللاتينية بصفة خاصة بـ (ريموند Raymund) الذى كان رئيس أساقفة طليطلة من عام ١١٣٠ حتى عام ١١٥٠ وبعد ذلك رئيسا لأساقفة أسبانيا . فقد أسس مجمعا للمترجمين عهد رئاسته الى (دومينيك جونديسالفى Dominic Gondisalvi) وأسند اليه مهمة اعداد ترجمات لاتينيه لأهم الكتب العربية فى الفلسفة والعلوم . وكانت هذه الترجمات التى وصلت الى أيدى الغرب أساس الفلسفة المدرسية فى أوروبا (٣) .

وفى عام ١٢٢٠ أصبح فريدريك الثانى امبراطورا . وكان على اتصال وثيق بالمسلمين واعجاب كبير بهم ، فاتخذ اللباس الشرقى وكثيرا من العادات والتقاليد العربية . ولكن الأهم من هذا كان اعجابه الشديد بالفلاسفة العرب الذين كان بامكانه قراءة كتبهم الأصلية باللغة العربية التى كان يجيدها . وكانت علوم العرب

---

(١) Das Fischer Lexikon : Philosophie, p. 139, Frankfurt/M. 1963.

(٢) تاريخ الفلسفة فى الاسلام ٤١٧ .

(٣) راجع كتاب دى لاسى أوليرى : الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ص ٢٣٣ — ٢٣٥ . ترجمة اسماعيل البيطار بيروت ١٩٧٢ .

تدرس بشغف فى قصر فريدريك الثانى فى باليرمو (Palermo) وبذلك جعلت فى متناول اللاتينيين . وقد أهدى الامبراطور وابنه (مانفرد) الى جامعات بولونيا وباريس ترجمات لكتب فلسفية مترجمة عن العربية . وفى عام ١٢٢٤ أسس الامبراطور جامعة نابولى وجعل منها أكاديمية لادخال العلوم العربية الى العالم الغربى (١) .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد هو أن القديس توماس الأكوينى (Thomas of Aquin) قد تلقى علومه قبل دخوله سلك الرهبنة فى هذه الجامعة . ولعل هذا كان السبب الذى حدا به الى الاهتمام بتعاليم الفلاسفة العرب الى الحد الذى حمله على تقديرها تقديرا دقيقا جدا (٢) . وقد كان لكل من ابن سينا وابن رشد بصفة خاصة حجة عظيمة فى العصور الوسطى فى أوروبا (٢) . وأصبح هناك تيار يعرف بالسينائية (Avicennism) وتيار آخر يعرف بالرشدية (Averroism)

وقد كانت الفلسفة المدرسية المسيحية ممثلة فى (البرت الكبير Albertus Nagnus) وتوماس متفقة فى بعض آرائها مع ابن سينا ، وبوجه خاص فى نظرية المعرفة ، كما أخذ البرت وتوماس بما رآه ابن سينا فى مسألة الكليات (universalia) وفى هذه النقطة كثيرا ما اقتبس توماس والبرت من ابن سينا بوصفه صاحب حجية ، كما أخذ توماس بما رآه ابن سينا من الفصل الحاد بين

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٧ — ٢٣٨ . وتاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ٤١٧ .

(٢) الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ص ٢٤٣ .

(٣) **J. Hirschberger, Kleine Philosophiegeschichte, p. 76, Freiburg 1961.**

الماهية والوجود (١) . ونجد أيضا تأثير ابن سينا حيا وقويا فى تعريف ألبرت للنفس وفى نظريته فى النبوة . وقد اتخذ دانس سكوت (Duns Scotus) من فلسفة ابن سينا الى حد ما أساسا بنى عليه أقواله فى ما وراء الطبيعة .. وقد نبه بعض الباحثين الى وجود سوابق لدى ابن سينا للكوجيتو (Cogito) الديكارتى (٢) .

ويثبت كارا دى فو (Carra de Vaux) وجود سينائية لاتينية فى أوروبا فى القرون الوسطى تتركز الناحية البارزة منها على العنصر العربى أكثر مما تتركز على العنصر الأوغسطينى (Augustinism) أو أى تلوين آخر من التفكير المسيحى فى القرون الوسطى (٣) .

وقد كان روجر بيكون (Roger Bacon) من المعجبين بابن سينا وكان لا يخفى هذا الاعجاب (٤) . فقد قدر لهذا الاتجاه الآتى من ابن سينا أن ينتشر ويزدهر الى أقصى حد فى فكر روجر بيكون الذى تأثر بابن سينا والفارابى الى درجة أن نظريته عن قداسة البابا تتفق تمام الاتفاق مع النظريات التى قال بها ابن سينا عن الخلافة (٥) .

وكان لآراء الفارابى أثرها لدى « ألبرت الكبير » من نواح

---

(١) Ernst Bloch, Avicenna und die Aristotelische Linke, p. 46, 51. Sunrkamp Verlag 1963.

(٢) انظر : تراث الاسلام لشاخت وبوزورث ترجمة د. حسين مؤنس واحسان العمد . القسم الثانى ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ : سلسلة عالم المعرفة بالكويت .. نوفمبر ١٩٧٨ .

(٣) سلفادور غومث نوغالس : الفلسفة الاسلامية وتاثيرها الحاسم فى فكر الغرب . ص ٤٦ . ترجمة عثمان الكعاك . الدار التونسية للنشر ١٩٧٧ .

(٤) المرجع السابق ص ٥٣ . (٥) تراث الاسلام ص ٢٦٦

مختلفة (١) . وقد كان لكتاب احصاء العلوم للفارابى اثره العظيم لدى المؤلفين فى القرون الوسطى فى أوروبا . وقد أعطى الفارابى فى هذا الكتاب فكرة عامة واضحة عن موضوع كل علم من العلوم المشهورة فى زمانه وبين فائدته النظرية والعلمية . وقد اقتبس العالم الأسبانى جنديسالينوس (Gundissalinus) فى القرن الثانى عشر معظم هذا الكتاب وضمنه كتابه المعروف بتقسيم الفلسفة . كما أفاد روجر بيكون من كتاب الفارابى كثيرا . وأفاد منه أيضا كثيرا جدا — وخاصة فيما يتعلق بالكلام على الموسيقى جيروم دى مورافيا (Jérome de Moravie) فى القرن الثالث عشر (٢) .

أما عن ابن رشد فانه كان يمثل منطلقا لتطور جديد فى العالم الغربى ، كما أن المذهب التومائى لم يكن يمكن تصوره بدون ابن رشد (٣) . وبحلول منتصف القرن الثالث عشر كانت جميع مؤلفات ابن رشد الفلسفية تقريبا قد ترجمت إلى اللاتينية (٤) . وقد أثبت رينان وجود رشدية لاتينية فى أوروبا فى كتابه عن ابن رشد والرشدية . وقد عاشت الرشدية فى أوروبا عدة قرون. وأسهمت اسهاما عظيما فى قضية الحرية الفكرية فى القرون الوسطى فى أوروبا (٥) .

وقد كان أول دليل على الذيوع لأفكار ابن رشد يرتبط بوليم

---

(١) د. ابراهيم مدكور : فى الفلسفة الاسلامية ج ١ ص ١١٤/ ١١٥ . دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٦ .

(٢) انظر احصاء العلوم للفارابى تحقيق وتقديم د. عثمان أمين ص ٢٣ وما بعدها . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨ .

(٣) Fischer Lexikon, p. 139.

(٤) الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ص ٢٣٩ .

(٥) Hirschberger, p. 92.

الاڤرنى » (William of Auvergne) الذى كان مطرانا لباريس .
فقد أشاد بابن رشد باعتباره مدافعا حقيقيا عن الحقيقة ، وكان يقتبس منه كثيرا ، معتبرا اياه المعلم الأكثر صوابا (١) .

وقد تابع القديس توماس ابن رشد فى شرحه للعلاقة بين الوحى والمعرفة الفلسفية . وقد بين أسين بلاثيوس (Asin Palacios) فى بحث له على أساس مقارنة النصوص التى عند ابن رشد وتوماس أن الاتفاق بينهما لم يقتصر على وجهة النظر الاجمالية والأفكار والأمثلة بل كان فى الألفاظ أحيانا — وبين بلاثيوس أن ذلك ليس اتفاقا عارضا ولا مبنيا على رجوع كل منهما الى أصل مشترك . وانما يرجع الى أن القديس توماس عرف آراء ابن رشد وانتفع بها (٢) .

وقد استمر أثر الرشدية فى أوروبا حتى القرن السابع عشر .
وقد بشر هذا الأثر بالمذهب العقلى الذى ساد فى عصر النهضة الأوروبية (٣) .

أما حجة الاسلام الغزالى فقد كان له تأثير بصورة مباشرة وأحيانا بصورة غير مباشرة على عالم الفكر الأوروبى وحتى على عالم الفكر الحديث كما سنوضح ذلك بعد قليل . وقد امتد تأثير الغزالى عن طريق رايموند مارتين (Raimund Martin) الى توماس الأكوينى أولا وفيما بعد على باسكال (٤) وفى كتاب (الطعنة النجلاء

---

(١) الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
(٢) انظر تراث الاسلام ٢٦٢/٢ [هامش للمترجمين] .
(٣) المرجع السابق ص ٢٧٣ ، والفكر العربى ومركزه فى التاريخ ص ٥٤٦ .
(٤) Handwoerterbuch des Islam, p. 142, Leiden 1976.

ضد المغاربة واليهود) الذى ألفه رايموند مارتين كانت حججه مأخوذة فى معظمها من كتاب تهافت الفلاسفة للغزالى .

كما أن الاعتراضات التى أوردها القديس توماس على مذهب وحدة العقول وغيره هى نفس الاعتراضات التى كان قد أوردها علماء الكلام المسلمين من أهل السنة تقريبا . وجاءت الى توماس عن طريق الغزالى (١) .

ومما تقدم يتضح لنا بجلاء مدى تأثير الفلسفة الاسلامية فى الفكر الأوروبى . وقد اعتمدنا فى عرضنا لهذه النقطة بالذات بصفة أساسية على مؤلفين أوروبيين .

ونود فى هذا الصدد أن نشير أيضا الى ما ذكره بهذا الخصوص عالم اسبانى معاصر ذكر فى أبحاثه على علاقة الفلسفة الاسلامية بالفلسفة الأوروبية فى القرون الوسطى وهو سلفادور جومث نوجالس (S. Gomez Nogales) حيث يقول : أنا مقتنع كل الاقتناع بأن هناك تأثيرا مباشرا للفلسفة الاسلامية فى أوروبا فى القرون الوسطى . بل أقول أكثر من ذلك انه لولا هذا التأثير الذى كان للفلسفة الاسلامية على المسيحية ربما ما كانت الفلسفة المسيحية تقدر على اجتياز تلك الخطوة العملاقة التى نقدرها عند عباقرة الفلسفة المدرسية أمثال القديس توماس ، أو على الأقل لم تكن لتخطو تلك الخطوة العملاقة بنفس السرعة التى تظللنا . ويقول نوجالس أيضا . ان الاستنتاج الذى توصل اليه من دراساته المقارنة بين الفلسفة الاسلامية والفلسفة المسيحية فى القرون الوسطى هو وجود تيارات فى التفكير الأوروبى الوسيط تلتقى مع الفلسفة العربية المعاصرة لها فى نقط مجسدة غاية التجسيد ، وهنالك قضايا محررة

---

(١) الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ص ٢٤٢ ، ٢٤٤ .

ونقط مذهبية محددة بالذات كل التحديد فى الفكر المسيحى فى القرون الوسطى اذا تتبعناها فى خط سيرها نجد أنها تصل بنا الى المؤلفين العرب .

وينتهى نوجالس الى القول الذى يصوغه بصيغة التأكيد القاطع : أن الفلسفة الاسلامية قد أثرت تأثيرا حاسما فى تفكير الغرب فى القرون الوسطى (١) .

ونظرا لأن دراسات نوجالس مقتصرة على القرون الوسطى فانه لم يتعرض بطبيعة الحال الى امتداد التأثير الاسلامى الى العصر الحديث . وهذا الموضوع لم يحظ حتى الآن الا بالقليل جدا من اهتمام الباحثين .

***

(ب) التأثير الاسلامى فى فلسفة العصر الحديث :

لقد اتضح لنا مما تقدم أن الفلسفة الاسلامية كان لها تأثيرها العظيم فى الفلسفة الأوروبية فى القرون الوسطى ، واذا كانت هذه الفلسفة قد أثرت بدورها فى الفلسفة الأوروبية الحديثة فاننا نستطيع أن نقول بوجود تأثير غير مباشر للفلسفة الاسلامية على الفلسفة الحديثة . ولكن هذا لا يعنى عدم وجود تأثير مباشر أيضا . ونريد هنا أن نشير الى بعض جوانب هذا التأثير ، ونأمل أن يجد هذا الموضوع حقه من الاهتمام من جانب الباحثين المعنيين . وأول جوانب التأثير فى العصر الحديث تتمثل فى تأثير الغزالى على ديكارت .

وقد اعتمد الغزالى الشك المنهجى سبيلا للوصول الى اليقين

---

(١) الفلسفة الاسلامية وتأثيرها الحاسم فى فكر الغرب ص ٦٢ ـــ ٦٤ .

الفلسفى . ورسم الغزالى خطوات هذا المنهج بالتفصيل بصفة أساسية فى كتابه « المنقذ من الضلال » فرفض التقليد والتبعية الفكرية رفضا قاطعا واكد على ضرورة الاستقلال العقلى فى البحث عن الحقيقة . وقام بنقد المعارف الانسانية والشك فيها ابتدءا من المعارف الحسية الى المعارف العقلية . وناقش مسألة اليقين وقضية العقيدة ومشكلة التفرقة بين المعارف التى يحصل عليها المرء فى اليقظة ومثليتها فى المنام . وأخيرا مشكلة الشك الميتافيزيقى المتمثلة فى تصور شيطان مخادع أو كائن مضلل حتى نوصل فى النهاية الى اليقين الفلسفى الذى لا يتزعزع والذى عبر عنه بعودة الثقة فى الضروريات العقلية . وتوصل بطريقة عقلية — لا صوفية كما يزعم البعض — الى معرفة الذات ومعرفة الله مما لا يسمح المجال الآن بعرض تفصيلاته .

وقد كان للشك المنهجى الذى وضع الغزالى جميع خطواته اثره البالغ فيما عرفه الفكر الفلسفى بعد ذلك لدى ديكارت الذى يعده المؤرخون ابا للفلسفة الحديثة كلها . فالخطوات التى سار عليها الغزالى فى شكه المنهجى هى نفس الخطوات التى سار عليها ديكارت بعده بأكثر من خمسة قرون واعتبر المنهج الديكارتى — فتحا جديدا فى عالم الفلسفة .

وقد قمت بعقد مقارنة تفصيلية بين الغزالى وديكارت فى دراسة نشرت باللغتين العربية والألمانية (١) . ويتضح من هذه الدراسة

---

(١) انظر كتابنا المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت ، مكتبة الأنجلو المصرية . (الطبعة الثانية ١٩٨١) . وانظر بحثنا المنشور فى مجلة عالم الفكر بالكويت بعنوان (الشك المنهجى عند الغزالى وديكارت) أكتوبر — ديسمبر ١٩٧٣ . وانظر أيضا بحثنا باللغة الألمانية :

Al Ghazalis Grundlegung der Philosophie, Diss. Muenchen 1968.

التطابق الذى يكاد يكون تاما بين فكر الغزالى وفكر ديكارت . وقد اكتفيت فى هذه الدراسة بالمقارنة من وجهة النظر الفلسفية ، ولم اتعرض للجانب التاريخى الذى يعنى بالبحث فى صلة ديكارت بالغزالى . وقــد أكد أحد الباحثين فى عام ١٩٧٦ تأكيدا قاطعا اطلاعه على دليل مادى فى مكتبة ديكارت يثبت تعرف ديكارت على فكــر الغزالى وتأثره به عن طريق ترجمــة لكتاب « المنقذ من الضلال » للغزالى . وقد ضمن هذا الباحث وهو المؤرخ التونسى المرحوم عثمان الكعاك هذه الأقوال فى بحثه الذى قدمه الى ملتقى الفكر الاسلامى فى الجزائر عام ١٩٧٦ (١) .

ويمكن الاشارة الى جوانب أخرى لدى الغزالى لها صدى فى فكر فلاسفة آخرين غير ديكارت من أقطاب الفلسفة الحديثة . ومن ذلك نقد الغزالى المسهب لمبدأ السـببية ورد العلاقة بين السبب والمســبب الى العادة واعتبارها مجرد علاقة زمانية بين شــيئين ــ هــذا النقــد وجدناه بعينه لــدى (دافيد هيــوم David Hume) ، بل ان هيوم لم يأت بجديد فى هذا الصدد ، وهذا ما لاحظه رينان حين قال : ان هيوم لم يقل فى نقد مبدأ السببية أكثر مما قاله الغزالى (٢) .

ويمكن عقد مقارنات أخرى كثيرة مثمرة بين فلاسفة اسلاميين آخــرين وفلاســفة أوروبيين فى العصر الحــديث . فقــد تأثر « اسبينوزا » مثلا بالأفكار الاسلامية اما بطريق مباشر أو عن طريق ابن ميمون (١١٣٥ ــ ١٢٠٤م) ، وهذا بدوره كان متأثرا

---

(١) انظر تفصــيل ذلك فى مقدمة الطبعة الثانية من كتابنا : المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت .

(٢) أرنست رينان : ابن رشــد والرشدية .. ترجمة عادل زعيتر ص ١١٢ .. طبع عيسى الحلبى بالقاهرة ١٩٦٧ .

الى حد بعيد بالفلسفة الاسلامية كما يتضح تمام الوضوح من كتابه « دلالة الحائرين » (١) . واخوان الصفا ، تلك الجماعة التى تكونت فى البصرة فى القـــرن العاشر الميـــلادى واخرجت للناس موسوعة ضخمة تتناول كل فرع من فروع المعرفة الانسانية كانوا روادا لفلاسفة عصر التنوير فى فرنسا فى القرن الثامن عشر وما اخرجوه للناس من موسوعات ، وافكار ابن خلدون فى فلسفة التاريخ والفلسفة الاجتماعية أثمرت ثمارها فى أوروبا .

ونكتفى الآن بهذه الأمثلة .

***

---

(١) فى الفلسفة الاسلامية للدكتور مدكور جـ ١ ص ١١٧ .

● **كلمة ختامية :**

بعد أن بينا مكانة العقل فى الاسلام ودور الاسلام فى تطور الفكر الفلسفى نود فى ختام هذا البحث أن نؤكد على الملاحظتين التاليتين :

١ — عندما يراد الحديث عن الاسلام فانه يجب التفريق بوضوح بين أمرين أولهما : الاسلام كدين وكتعاليم أثبتت وجودها وفعاليتها وتأثيرها على مر القرون ، وثانيهما الوضع الحضارى الراهن للمسلمين فى عالم اليوم .

فمبادىء الاسلام فى تطوير الفكر وحمايته لا تزال قائمة ومؤهلة للقيام بنفس الدور الذى قامت به فى السابق وذلك لأن الاسلام ليس دينا جامدا ، ولكنه دين للحياة بشمولها ، يدعو الى التغيير والتطوير المستمر للحياة ، ولكنه فى الوقت نفسه يقرر أن المبادىء مهما كانت سامية فانه لا يمكن أن تحقق نفسها الا عن طريق ارادة بشرية تعمل على تحقيقها . وهذا قانون قرآنى يقول ((**ان الله لا يغير بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**))(١) .

٢ — لم يعد هناك اليوم مجال لاستمرار الجدل العقيم بين الحضارات . فالأخطار التى تهدد البشرية اليوم ليست أخطارا تحيط بحضارة معينة وانما هى أخطار تحيط بالانسانية كلها . ولذلك يجب أن تعمل الحضارات المختلفة جاهدة على زيادة التفاهم فيما بينها . ونعتقد انه قد آن الأوان لأن ينظر العلماء الأوروبيون الى الاسلام وحضارته نظرة موضوعية وعادلة ، دون التأثر بعقد قديمة أو جديدة . وبهذه الطريقة وحدها يمكن اجراء حوار حضارى مثمر بين الحضارتين الاسلامية والاوروبية .

والله الموفق .. وهو المستعان .

***

---

(١) الرعد : ١١ .

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٢٩٢٨/٨٤

الترقيم الدولى ٣ ــ ٠٢٩ ــ ٣٠٧ ــ ٩٧٧